مقدمة المرزوقي

لشرح حماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

— ٤ —

(ومتى اعترف اللفظ والمعنى فيما تصوبُ به العقول فتعانقا وتلابسا متظاهرين في الاشتراك وتوافقا . فهناك يلتقي ثريا البلاغة فيُمطرُ روضها . وينشر وشيها . ويتجلى البيان . فصيح اللسان . نجيح البرهان . وترى رائدي الفهم والطبع متباشرَين لما من المسموع والمعقول بالمسرح الخصب والمكرع العذب) .

تخلص المرزوقي في هذا الكلام الى مقام الحكم بين مذهب أهل الألفاظ ومذهب أهل المعاني فبين أنه لا يتم للكلام حسنه وبلاغته إلا باجتماع شرف لفظه وشرف معانيه .

واعتراف اللفظ والمعنى هو توافقهما وتآلفهما كالشخصين اللذين يعرف أحدهما الآخر ويألفه .

تصوبُ تمطر والصَّوْب المطر ويقال صَوب المزن أي ماء السحاب ، شبَّه العقول المختارة للألفاظ والمنظمة للمعاني بالأسحبة وشبه ما تأتي به من محاسن الألفاظ وشريف المعاني بالمطر وأثبت الصوب بالعقول على طريقة الاستعارة المكنية مع كونها استعارة تبعية وهذه الاستعارة مأخوذة من قول أبي تمام في وصف الشعر :

ولكنه صوبُ العقول اذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب

وقد أتبع المؤلف استعارته هذه بتمثيل بناه عليها فشبه هيئة انهيال الصنائع البليغة الرائقة من آثار أهل البلاغة نثراً ونظماً ، وتلقيَ السامعين إياها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واهتزازَ أذواقهم لقبولها ، وإقبالَهم على الاختيار منها ، على حسب الأذواق ، شبَّه ذلك بهيئة عُروض السحاب في أغزر الأنواء إفاضة وهو نَوْء منزلة الثريا فتغزر معصراتها وتشتهر بين الأدباء كانتشار وشي الزرع في الرياض النضرة ، فتصبح الأدباء تفسر دقائقها للطلاب كما تبشر رواد المراعي رِعاءُ الحي بالمسارح الخصبة والمكارع العذبة فذكر هنا الهيئة المشبه بها ، وقد أشار الى الهيئة المشبهة بقوله فيما يأتي « ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم أقلام المزيفين على ما زيفوه ويعلم أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأَبِيِّ السمح على الأَبِيِّ الصعب » ، ولقد أجاد التمثيل ، فأصبح كلامه لقواعد الأدب خير تمثيل . وقوله « في الاشتراك » وقع في نسخة تونسية ونسخة الآستانة « الاشتراف » بفاء في آخره أي الارتفاع وهي أحسن لأن الاشتراك يغني عن قوله متظاهرَين إذ هو بمعنى متعاونين فيكون شبه الرفعة المعنوية برفعة السحاب إذا أخذ يتصاعد وينضم بعضه الى بعض ووقع في النسخة التونسية الأخرى الاشتراق بقاف في آخره ولا يستقيم .

وقوله تلتقي ثريا البلاغة في بعض النسخ بلتقي بياء الغائب وفي بعضها تلتقي بتاء الغائبة . وصيغة الالتقاء تقتضي ملاقاة شيئين وليس في عبارة المؤلف سوى الثريا ، فالظاهر أن صواب العبارة يَلْقَىَ بالمثناة التحتية المفتوحة وفتح القاف والضمير عائد الى ما تَصوُبُ به العقول ، والمعنى فهنالك يقع ذلك الصوب في منزلة الثريا فيلقاها فيغزر مطره ، ويجوز أن يكون الالتقاء بمعنى التلقي مبالغة . والثريا من الأنواء الوسْمية أي الربيعية أي التي يكثر الأمطار في زمان طلوعها في بلاد العرب والمطر الربعي يُضرب المثلُ بشدته قال النابغة :

وكانتْ لهم رِبعية يحذَرونها اذا خضخضت ماء السماء القبائل (١)

(فاذا كان النثر بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى ، والنظم اتسع نطاق الاختيار

(١) القبائل قبائل الخيل جمع قبيلة وهي من اربعين من الخيل الى ستين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه على ما بيناه بحسب اتساع جوانبها وموادها وتكاثر أسبابها ومَوانِعها ، وكان الشعر قد ساواه في جميع ذلك وشاركه ثم تفرد عنه وتميز بأن كان حدُّه لفظ موزون مقفى يدل على معنى . فازدادت صفاته التي أحاط الحد بها بما انضم من الوزن والتقفية اليها ـ ازدادت الكلف في شرائط الاختيار فيه كان للوزن والتقفية أحكاماً تماثل ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تقارب . وهما يقتضيان من مراعاة الشاعر والمنتقِد مثلَ ما تقتضيه تلك من مراعاة الكاتب والمتصفح لئلا يختل لها أصل من أصولها أو يعتل فرع من فروعها) .

في نسختي تونس ونسخة الآستانة « واذا » بالواو الموات الوسائل جمع ماتّة وهي الوسيلة الى الشيء لأنها تمت اليه أي تمد وتتوسل يقال مت بقرابة أي اتصل وتوسل . ومعنى كلام المؤلف ظاهر .

(واذا كان الأمر على هذا فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرفَ مواطئُ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم أقلام المزيفين على ما زيفوه ، ويعلمَ أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع) .

تخلص هنا الى تخصيص بحثه بالشعر وهو المقصود من هـذه المقدمة ولذلك سيقول فيما يأتي « فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر » وقد نبهنا آنفاً على أن هذه الفقرات تشير الى الهيئة المشبهة بهيئة السحاب والمطر في قوله آنفاً « فهنالك يلقى ثريا البلاغة فيمطر روضها الخ .. » .

والمصنوع هو الشعر الذي أدخل فيه ما يسمى عند أهل الفن بالصنعة وهي التهذيب والتنقيح للشعر وإبداع المحاسن البديعية واللطائف اللفظية فكان علم أصحابه مكتسباً بالصنعة أي أن يعمدوا الى القواعد والنكت وصور الأمثلة التي تلقوها بالتعلم فيراعوها في منشئاتهم بالتروي والتثقيف فيكون شعرهم كالشيء المصنوع باليد وقد يقع بعض ذلك عفواً بدون تعمد ولا تكلف وهو الغالب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من شعر المولدين قال ابن رشيق [1] : « أشهر الشعراء في المصنوع ابن المعتز » .

والمطبوع هو الشعر الذي يصدر عن الشاعر بالسجية والطبيعة الناشئة عن تدربه بسماع أشعار البلغاء واندفاع طبيعته لمحاكاة أشعارهم حتى يصير الشعر البليغ له كالطبع فلا يصرف فيه تعمق روية ولا معاودة تنقيح وتثقيف .

(وفضيلة الأَتِيّ السمح على الأَبِيّ الصعب) .

تقدم بيان معنى الأَتِيّ والأَبِيّ في تفسير أول الديباجة ووصفهما هنالك بالمستسهل والمستنكر ووصفهما هنا بالسمح والصعب . والسمح صفة من السماحة وهي لين الأخلاق وحسن المعاملة ، والصعب صفة من الصعوبة وهي الشدة في الخلق (فنقول وبالله التوفيق) :

(انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته) .

ضمير انهم عائداً الى الشعراء أو الى أهل نقد الشعر ، والمحاولة ابتغاء الشيء وروْمه . والشرف حصول صفات الكمال النوعي ، فشرف المعنى أن يكون من أحاسن المعاني المستفادة من الكلام بأن يَتلقى فهم السامع المعنى مستغنياً به في استفادة الغرض الذي يفاد به ، وقد وصف المؤلف المعنى هنا بالشرف والصحة ووصَفَه فيما تقدم بالمعجبة الجزلة العذبة الحكيمة الزاهرة الفاخرة ، وطريقة صوغ المعنى الشريف هي أن يَلحظ البليغ ما يجيش في نفسه مما يريد إبلاغه الى نفس السامع فينشئه في نفسه ويكيفه بأحسن صورة يَرى أنها تقع لدى السامعين موقعاً حسناً بمُراد الشاعر ويليق بالغرض الشاعري ، متكلاً في تحصيل تلك الكيفية على فطنته ودربته المتولدة في ذوقه بما ورد على ذهنه من محاسن البلغاء والحكماء والعلماء فاكسب ذوقه صوراً غير جزئية يقيس عليها أمثالها إذا أراد التعبير ، بابتكار مماثلات لها جديدة أو بحصرف فيها يغيرها عن حالتها السابقة تصرفاً كثيراً أو قليلاً ويندفع اليها ذهنه سريعاً . ومن أكبر أسباب شرف

(١) صفحة ٨٥ من العمدة طبع مطبعة امين هندية بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المعنى أن يكون مبتكراً غير مسبوق ثم ان يكون بعضه مبتكراً وبعضه مسبوقاً وبمقدار زيادة الابتكار فيه على المسبوقية يدنو من الشرف ، ولأبي تمام وأبي الطيب ابتكارات كثيرة ويقرب منهما أبو نواس ثم ابن الرومي .

فاذا أنشأ ذوق البليغ معنى ، لاحت له منه محاسن المعنى ونقائصه ومعائبه فاحتفظ بالمحاسن وأكمله عن النقائص ومحا عنه المعائب ، فاذا تقوم فيه ما من شأنه أن بغيَ بأمله من إرضاء السامعين من أهل الصناعة وامتلاك استحسانهم فرواه محوكاً على منوال ما يحوك على مثله البلغاء فيما انتهت اليه مزاولته ودربته ، وثق بأنه معنى شريف .

فَعُلِم أن شروط شرف المعاني تختلف باختلاف محالِّها من أغراض الكلام من إثارة حماس أو استعطاف وابساس أو غزل أو نسيب أو فخر أو ذب عن شرف أو نحو ذلك . قال ابن الأثير في المثل السائر « إن الكاتب أو الشاعر ينظر الى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من الغائب اهـ » .

وهذا عمل محتاج الى صفاء قريحة وكرم سجية وطول دربة وحسن اقتداء وتمييز بين المقبول والمرفوض وقد ذكر ابن الأثير في المثل السائر [1] من المعنى الشريف قول أبي الطيب :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

لولا لفظة تؤذي فيه فانها تؤذي . ولا يُتوهم من كلام ابن الأثير ولا من مادة شريف أن شرط المعنى كونه من الفضائل أو المعاني الحميدة فإنه لو كان ذلك مرادَهم لذهب معظم النسيب والهجاء ولذهب ما كان من الشعر كذباً ، بل مرادهم ما أفصح عنه قدامة في نقد الشعر [2] إذ يقول : « إن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً

(١) صفحة ٨٨ .
(٢) صفحة ٤ ، ٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حسناً ، غيرُ منكرٍ عليه ولا معيبٍ من فعله ذلك بل يدل على قوة الشاعر واقتداره على صناعته وإنما قدمت هذا لما وجدتُ قوماً يعيبون قول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

اذا ما بكى من خلفها انفتلت له بشق وتحتي شقها لم يحول

وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه اه» .

وأما صحة المعنى في كلام المؤلف فهي في الدرجة الأولى للصعود في مصاعد الشرف أي أن لا يكون في المعنى اضطراب أو سوء ترتيب أو انتقاض بعضه ببعض فيصيرَ الإنشاء أو الترسل أجوف ، قال ابن رشيق : « وفرقة من الشعراء أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائلِ معنى إلا قليلاً كأبي القاسم ابن هانئ في قوله أول مذهبته :

أقامت فقالت وَقْعُ أجردَ شيظم وشامت فقالت لمعُ أبيضَ مِخذَم

وما ذُعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا بُرَى في مُخَدَّم

فليس تحت هذين البيتين إلا ان هذه المنسب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة وقعَ فرس أو لمعَ سيف اه» .

على ان في قوله شامت خطأً لأن الشيم هو النظر الى البرق ليعلم أين يذهب ويتوسَّم أين يُمطر .

واعلم ان ضد المعنى الشريفِ المعنى السخيفُ لقلة جدواه أو لدلالته على تعلق تفكير صاحبه بصور ضعيفة كما خطب والٍ باليمامة في موعظة فقال : « إن الله لا يقار عبادَه على المعاصي وقد أهلك أمة عظيمة في نافة ما كانت تساوي مائتي درهم » فلقبوه مقوم النافة . ومن المعاني السخيفة قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فيا ليت شعري من يَهيم بها بعدي

وقد عابته سكينة ابنة الحسين . وضد المعنى الصحيح المعنى الخاطئ والمختل كما قال شعرور فيما أنشده الراغب الاصفهاني :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أزُبيدةُ ابنةَ جعفر طوبى لزائرك المشاب
تُعطين من رجليك ما تعطي الأكفُّ من الرغاب

فانه أنشده بحضرتها فقام اليه الخدم ليضربوه لقوله تعطين من رجليك فمنعتهم وقالت إنه قصد مدحاً وأراد ما يقول الناس : شمالُك أجود من يمينه فظن انه اذا ذكر الرِّجْل كان أبلغ وقد حمدنا ما نواه . وإن أساء فيما أتاه .

ومن عجيب ما عرض للشعراء من سخيف المعنى ما عرض لأبي العتاهية من قوله في رثاء الخليفة :

ماتَ الخليفة أيها الثقلان فكأنني أفطرتُ في رمضان

فان المصراع الثاني من سخيف المعنى وان بينه وبين المصراع الأول بوناً بعيداً . وقد نظرتُ في مجموع شرف المعنى وصحته وكيف يكتسبه البليغ فرأيت أن يقتدي مريد الإجادة بالذين شهد لهم البلغاء بالإجادة في غرض من أغراض المعاني فينسجَ على منواله : فاذا رام إثارة حماس جمع في ذهنه ما يلائم حالة الاستصراخ ، واستبطاء النصير . وتخيَّلَ المستنجِدُ هضيم الجانب ذا جناح كسير . فاجتهد أن يكثر من المعاني التي من شأنها إثارة حمية المخاطب واقتداره وعلى هذا المنوال ينسج . ومن صور صحة المعنى أن يكون مطابقاً للواقع كما قال حسان :

وإنَّ أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

ولكن ذلك ليس بشرط على الاطلاق وخاصة في الشعر فان الشعر يبنى على المغالطه والخيال وهذا الشأن يختلف باختلاف الأغراض والمقامات فلكل غرض من أغراض الكلام ما يناسبه من صحة المعنى في بابه ، وللنثر مناسبات ليست للشعر وبالعكس وسيأتي للمؤلف ذكر الخلاف في أن أحسن الشعر أصدقه أو أكذبه أو أقصره .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

« يتبع »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net